محاضـــرة

الشيخ البشير الإبراهيمي

محمد البشير الإبراهيمي يعود نسبه الى قبيلة عربية تعرف " بأولاد إبراهيم " [1] ،وهي احدو القبائل السبع المجاورة لسفوح الاطلس الأكبر الشمالية المتصلة بجبال الاوراس الغربية وهي الواقعة في مقاطعة قسنطينة من القطر الجزائري[2] ، ولد يوم 19 جويلية 1889 بمدينة" سطيف" تعلّم بمسقط رأسه على يد والده وعمه، هاجر إلى الحجاز مع أهله قبيل الحرب العالمية الأولى وعمره 11 سنة ، تلقى تكوينا عاليا في اللغة والفقه و العلوم الاسلامية ، ،إلتقى في المدينة المنورة الإمام عبد الحميد بن باديس عام 1913، وتحدثا مطولا عن وضع الجزائر، وخططا لما يقومان به عند عودتهما غلى الجزائر ، بعدها انتقل الى دمشق التي استفاذ من مدارسها ومشايخها واقام بها الى غاية سنة 1920 [3]، اشتغل فيها بإلقاء المحاضرات، فنال إعجاب وتقدير من طلابه وزملائه.

العمل الإصلاحي

بدأ الشيخ البشير الإبراهيمي مهمته من خلال مهنة التعليم التي كان يرى فيها وسيلة فعالة من أجل إصلاح أوضاع الجزائر، بتوعية الشعب وتعليمه مبادئ دينه ولغته حتى يكون مستعداّ للدفاع عنها أمام المستعمر، وساهم مع بن باديس في تأسيس جمعية العلماء المسلمين سنة 1931 وعيّن نائبا للرئيس، يقول في أهداف تأسيسها (أيها السادة الأدباء المؤيدين للإصلاح، المتواجدين في مناطق متفرقة مختلفة في الجزائر، هلموا ،اتّحدوا

---

[1] محمد لحسن فضلاء ،من اعلام الإصلاح في الجزائر ،مطبعة دار هومة ، الجزائر ،1ج،2000 ،ص11

[2] محمد البشير الابراهيمي ، في قلب المعركة ،تصدير أبو القاسم سعد الله ،دار الامة ، الجزائر،2007 ، ص 98

[3] عمار عمورة ،الجزائر بوابة التاريخ :من ما قبل التاريخ الى 1962،دار المعرفة ، الجزائر ،2006 ، ج2 ،ص 246

وتعاونوا، وأسسوا حزبا وثيقا (حزب ديني محض)، من أجل تنقية الدين من الشوائب والبدع التي لحقت به من السذج والجاهلين، وذلك بالرجوع إلى المصادر القرآنية، وأحاديث الرسول، وتقاليد القرون الثلاثة الأولى، نحن نتمنى أن يقبل كل شخص هذا الاقتراح، وأن يلبي نداء العلماء ومؤيدي الإصلاح الذين يؤيدون هذه الصحيفة، وأن يغادروا أفكارهم القديمة، وإذا حصلنا على شهادة استحسان وقبول من عدد كاف، سنشرع في تكوين الحزب، والله الموفق)[4] ،كما اختير لتمثيل الجمعية في الغرب الجزائري بعد أن كلف بإدارة مدرسة دار الحديث بتلمسان ،ونظرا لنشاطه المعادي للاستعمار اعتقل من طرف الإدارة الفرنسية ،و نفي إلى آفلو بالأغواط و رغم تواجده بالمنفى إلا أنه اختير رئيسا لجمعية العلماء بعد وفاة بن باديس. أطلق سراحه سنة 1943، وأعيد اعتقاله بعد تنديده بمجازر 08ماي 1945 بعد إطلاق سراحه ثانية واصل نشاطه الدعوي، على نهج بن باديس و كان يكتب افتتاحية جريدة البصائر لسان حال جمعية العلماء، كما أصدر جريدة الشاب المسلم باللغة الفرنسية. انتقل سنة 1952إلى المشرق العربي و استقر بالقاهرة وبقي هناك إلى غاية اندلاع الثورة التحريرية إذ أصدر بيان جمعية العلماء المسلمين، الداعي إلى إلتفاف الشعب بالثورة التحريرية ،و في مصر كان له نشاط لصالح القضية الجزائرية إلى غاية الاستقلال. توفي في 20ماي 1965.

حارب الطرقية ، ومن بين ما كتب مقال تحت عنوان: (آثار الطرقية السيئة في المسلمين) ،يوضح الى ماذا وصلت الصُّوفيَّة من الْتَجَرَّدة من جميع المعاني، ينتسب إليها كل من دبَّ ودرج، لا عن طريق التَّربية؛ ولكن عن طريق الدَّجَل والشَّعوَذَة، وخاضوا في شرح أُمور غيبيَّة، وأصبح مذهبُهم قائما على السِّرِّيَّة والتَّكتُّم، فتوافقت وتلاقَت مع الفِرَق الباطنية وغيرها من النِّحَل الفاسدة.

[4] عبد الحميد بن باديس: نداء إلى العلماء الإصلاحيين، جريدة الشهاب، العدد (3)، 26 نوفمبر 1925

يرى الشيخ الإبراهيمي رحمه الله أنَّه يَتَعيَّن عرضُ عقائد وأفكار الصُّوفية على ميزان الشَّرع، وأن تَخْضعَ للتَّحليل الشَّرعي الدِّيني، وفي هذا يقول: (وإنْ كُنَّا نُقِرُّه – أي التَّصوُّف – فلسفةً روحانيَّةً جَاءتْنَا من غير طريق الدِّين، ونُرغِمُها على الخُضُوع للتَّحليل الدِّيني)[5].

ويضيف الشيخ : (... والحقُّ في هذه النَّزعَة أنَّها صِبْغَةٌ روحيَّةٌ مَرجُوحةٌ في ميزان الشَّرع وأَحكَامِه، وإنَّما يُقبَلُ منها ما يُسَايِرُ المأْثُورَ، ولا يُجَافي المعروفَ من هَدي محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه، فإنَّ الدِّينَ قد تَكامَل بخِتَام الوحي، والزِّيادةُ فيه . بعد ذلك . كالنَّقصِ منه؛ كِلاهُما مُنكَرٌ، وكلاهما مرفوضٌ، وما لم يَكُنْ يَومَئِذٍ دِينًا، فليس بِدِينٍ بعد ذلك)[6].

واضافة لما سبق وشرح تطور الصوفية (ثم انتقلت الصوفية في القرون الوسطى من تلك الأعمال التي تستُرُ أصحابَها، إلى الأقوال التي تفضحُهُم، فخاضوا في شرح مُغَيِّبات...ثُمَّ أَمِرَ أَمْرُ هذه الصُّوفيَّة، وتَقَوَّتْ على الزَّمَن، والتَقَت مع الباطنية . وغيرها من الجمعيات . التي تَبنِي أَمْرَها على التَّستُّر على طَبيعَةٍ دسَّاسة، وعِرْقٍ نَزَّاعٍ، ومِزَاجٍ مُتَّحِدٍ، واختلطت تعاليمُ هذه بتعاليم تلك، وتشابهت الاصطلاحات، وابتُلِيَ المسلمون من هذه النِّحل بدَاءٍ عُضَال)[7].

ويضيف الشيخ لما أصبحت عليه الصوفية فيما بعد مطيَّةً للمُحتَلِّين و الزنادقة ،وصار خَادِمًا لمآرِبِهم، فقال: (ثم تدلّت الصُّوفية دَرَكَةً أخرى، فأصبحت وَسِيلةَ مَعاشٍ،

---

5 احمد طالب الابراهيمي ، آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ،دار الغرب الإسلامي ،1997 ،ط1 ،ج1 ،ص175

6 المرجع نفسه ،ج5 ،ص142

7 نفس المرجع ، نفس الصفحة

ومَصْيَدَةً لابتِزَاز أموال العامَّة، وانتهاكًا لأَعرَاضهم، وهناك التقَتْ مع الاستعمار في طريق واحد، فتَعَارَفَا، وتَعَاهَدَا على الوَلاَء) [8].

ويوضخ الشيخ سبب وغاية رده على الصُّوفيَّة، فقول: (إنَّنا لا نَحمِلُ لهؤلاء المشايخ – أي مشايخ الصُّوفية –ولا لأولادهم ولا لأحفادهم حِقدًا، ولا نَضْطَغِنُ عليهم شَيئًا، ولا نُنْفِسُ عليهم مالاً من الأُمَّة ابْتَزُّوه، ولا جاهًا على حِسَابها أَحرَزُوه، وليس بَيْنَنا وبَيْنَهم تِرَاتٌ قديمة، ولا ذُحُولٌ مُتَوارَثَةٌ، ولا طَوَائِلُ مَغرومَة ؛ وإنَّما هو الغَضَبُ لله ولدِينِه وحُرُمَاتِه أَنطَقَنا) [9] .

يؤكد على أن من أسباب التفرق "العصبية العمياء".. العصبية المذهبية والعرقية والقبلية والسياسية الخ. ويشير إلى أن التعصب المذهبي طغي شرره في جميع الأقطار العربية الإسلامية، وكان له أسوأ الأثر في تفريق الكلمة ،ويري أن آثارها في العلوم الإسلامية، فإنها لم تمدها إلا بنوع من الجدل المكابر، لا يسمن ولا يغني من جوع ،ويرى ان اتباع الطرقية من الأسباب الرئيسية في هذا فيقول :(اننا علمنا حق العلم بعد التروي والتثبت ودراسة أحوال الأمة ومناشيء أمراضها أن هذه الطرق المبتدعة في الإسلام هي سبب تفرق المسلمين ،ونعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شر ،ان هذه الطرق لم تسلم منها بقعة من بِقاع الإسلام ،وتجتمع كلها في نقطة واحدة وهي التحذير والإلهاء عن الدين والدنياْ)[10] ،ولا عاصم من شرور هذه العصبية إلا صرف الناشئة إلى تعليم فقهي يستند على الاستقلال في الاستدلال، وإعدادها لبلوغ مراتب الكمال، وعدم التحجير عليها في استخدام مواهبها إلى أقصى حد ، يقول الابراهيمي : (للجيل الآتي علينا حقوق أولية مؤكدة لا تبرأ ذممنا منها عند الله ، ولا تسقط شهادة التاريخ علينا بها ، إلا إذا أديناها كاملة ،

---

[8] نفس المرجع ،نفس الصفحة

[9] نفس المرجع ، ج 1 ، ص 177

[10] محمد البشير الابراهيمي ، الطرق الصوفية ،مكتبة الرضوان ، الجزائر ، سنة 2008 ، ط1 ، ص 6

وملاك هذه الحقوق أن نعدّهم للحياة على غير الطريقة التي أعدّنا بها آباؤنا للحياة)[11]،ولقد اعتمد "الإبراهيمي" في منهجه الإصلاحي على: التوعية والتنوير والتربية ، أما التوعية/التنوير، فهي لجماهير الشعب، الذي هو هدف الإصلاح ووسيلته معا، وأما التربية ، فهي للطلائع التي ينتظر منها أن تقود معركة التحرير والبناء والتقدم ولهذا اهتم الإبراهيمي بالشباب ، فعمل على تطهير عقولهم من الخرافات والأوهام ، فإنه كان يعني بالشباب عمدة المستقبل ، ويوجه إليهم النصائح.

يرى الشيخ الإبراهيمي أن الفقه الصحيح هو الفقه الذي يهتم بقضايا المجتمع ويسعى لإيجاد حلول لها ويبدد همومهم في اطار القران وهدي السنة ومنهج السلف الصالح ، كما أن هذا الفقه ليس في متناول جميع الا شخص ملم بآراء الفقهاء و العلماء والقدرة على العمل بمصادر الإسلام يقول : (إن في الفقه فقها لا تصل إليه المدارك القاصرة، وهو لباب الدين، وروح القرآن، وعصارة سنة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو تفسير أعماله وأقواله وأحواله ومآخذه ومتاركه ،وهو الذي ورثه عنه أصحابه وأتباعهم إلى يوم الدين، وهو الذي يسعد المسلمون بفهمه وتطبيقه والعمل به، وهو الذي يجلب لهم عز الدنيا والآخرة) 12.

إن الفقه عند الإبراهيمي ،ليس مجرد ذكر آراء الفقهاء وأدلتهم ووجوه دلالة تلك أدلة على تلك الآراء ثم الانتهاء إلى مناقشة الآراء وأدلتها والترجيح بينها في قالب نظري بحت ، دون نتيجة عملية واضحة .. الفقه عند الإبراهيمي ليس هو تلك الدراسة النظرية البحتة البعيدة عن الواقع ومشكلاته ، وإنما هو الفقه الذي يعايش واقع الإنسان ويعالج قضاياه، ويتتبع ما تفرزه الحياة الصاخبة من مشكلات وتعقيدات ، فيتناولها بالدرس الدقيق المحيط بعناصرها المختلفة وملابساتها المتنوعة ، ثم يتبعها بالعلاج الصالح لها والكفيل بإنهائها والقضاء على آثارها وامتداداتها.

---

11 احمد طالب الابراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج 3 ، مرجع سابق، ص 273

[12] نفس المرجع ، ج 2 ، ص 122.

والفقيه الحقيقي هو الحكيم والفطن والمهتم بمشاكل العامة ويسعى لإيجاد حلول لها تخفف عنهم الهموم و المآسي الحياة في اطار الشرع وبما يخدم الدنيا و الدين يقول الشيخ : (لو أن فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن، ومن السنة القولية والفعلية، ومن عمل السلف، أو من كتب العلماء المستقلين المستدلين التي تقرن المسائل بادلتها، وتبين حكمة الشارع منها، لكان فقهُهُم أكملَ، وآثارُه الحسنة في نفوسهم أظهرَ، ولكانت سلطتُهُم على المستفتين من العامة أعمق وأنفذ، ويدَهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدين أعلى) [13].

الفقه عند الإبراهيمي، إذن، هو الإدراك الدقيق لمشكلات الواقع الإنساني وأسبابها وملابساتها، والقدرة على معالجتها معالجة حاسمة بهدي الإسلام وأحكامه. لذلك وجدنا الإبراهيمي ينعى على فقهائنا القدامى إغراقهم في الدراسة النظرية وبعدهم عن الواقع وعن تناول مشكلاته العملية.

رأى الإبراهيمي ضرورة وأهمية السعي من أجل جمع التأييد والدعم العربي لمساندة المغرب العربي ليتحرر من سيطرة الاستعمار ،ومنذ وصوله لمصر 1952 عمل جاهدا لحشد دعم هذه القضية ،فربط علاقات متينة مع رؤساء وملوك وزعماء العرب من العراق ومصر والسعودية ،في 1952 جاء بغداد ضيفا ورحب به حاكمها وألقا خطابا يبين دور العراق في دعم ومساندة المغرب العربي فيقول :(إن الشمال الإفريقي كله فلذة من كبد الإسلام، وقطعة من وطن العروبة الكبرى ،وبقية مما فتح عقبة والهاجر وحسان ...انه بينكم وبينه صلات من اللغة والدين، وأرحاما من الجنس والخصائص، فصلوا هذه الأرحام يكن بعضنا لبعض قوة... إلا والله لن نفلت من مخالب الإستعمار فرادى، ولا نفلت منه إلا يوم تصبح أمة واحدة تلقى عدوها برأي واحد وقلب واحد، فان لم نفعل، ولم نكفر بهذه الفوارق التي وضعها الشيطان بيننا، فلا نلم الإستعمار ولنلم أنفسنا)[14].

---

[13] احمد طالب الابراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج: 3،مرجع سابق، ص: 291.

[14] نفس المرجع، ج 4 ، ص 103. 105

أصدر الشيخ بيانا مؤيدا للثورة يوم 2 نوفمبر 1954 عنوانه "مبادئ الثورة في الجزائر" وقعه معه الشيخ الفضيل الورتيلاني، وتبعه بيان آخر يوم 15 نوفمبر 1954 بعنوان "نداء إلى الشعب الجزائري". ومنذ أن اندلعت الثورة كانت للشيخ اتصالات مستمرة مع عدد من قادتها ومع أعضاء جبهة التحرير الوطني الجزائري، الذين التحقوا بالقاهرة. وفي يوم 17 فيفري 1955 صدر بالقاهرة بيان يتضمن ميثاق جبهة تحرير الجزائر، وقعه كل ممثلي الأطياف الوطنية الجزائرية وهم: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي والفضيل الورتيلاني ومحمد خيضر وأحمد بن بلة وحسين أيت أحمد والشاذلي المكي وأحمد بيوض وأحمد مزغنة ومحمد يزيد وحسين الأحول. وفي يوم 18 فيفري 55، صدر بالقاهرة أيضا بيان يتضمن اللائحة الداخلية لجبهة تحرير الجزائر، يحمل نفس التوقيعات. وتوالت الكلمات والبيانات والنداءات من الشيخ عبر وسائل الإعلام، خاصة في إذاعة صوت العرب، وكلها موجهة للشعب الجزائري وللمجاهدين الجزائريين ولكن أيضا للعرب والمسلمين.

وبمناسبة انعقاد مؤتمر (بندونغ بأندونيسيا – أفريل 1955) ، استغل الشيخ لتدويل القضية الجزائرية فاتصل بالجامعة العربية وبالملك سعود بن عبد العزيز وبالأمير فيصل وزير الخارجية، ، المعروف بحنكته السياسية والدبلوماسية وبلاغته باللغة الإنجليزية خطبة منظمة في الأمم المتحدة لصالح الثورة الجزائرية، لقيت صدى كبيرا لدى الوفود ،(في سنة 1955 طلبت من الإبراهيمي الإلتماس من الملك السعودي تعيين الشقيري رئيسا للوفد السعودي إلى الأمم المتحدة حتى يتمكن من الدفاع عن قضية الجزائر على أحسن وجه ،فوجه له الإبراهيمي رسالة واستجاب الملك للطلب، ومعروفة هي صولات وجولات الشقيري في الأمم المتحدة دفاعا عن القضية الجزائرية)[15] ،كان أعضاء الوفد الخارجي لجبهة التحرير والوفود الدبلوماسية للثورة وحتى أعضاء الحكومة المؤقتة يتصلون بالشيخ

[15] جزء من نص الرسالة الى الملك ، احمد طالب الابراهيمي ،آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج: 5،مرجع سابق، ص ص 51. 52

ويستشيرونه في كثير من القضايا ، أمثال فرحات عباس وبن يوسف بن خدة وأحمد فرنسين ولمين دباغين الذي يكنّ للشيخ احتراما كبيرا، وكريم بلقاسم الذي كان يحرص على زيارة الشيخ ويستشيره ويسترشد بآرائه، خاصة حينما يسافر في مهمات، وكان يخبره بكل التفاصيل حول الثورة ، وحدث هذا التقارب مع كريم بلقاسم، رغم أنه ليس له ماض في الجمعية مثل عميروش وبن مهيدي وبن بولعيد.

بعد الاستقلال وقع خلاف بين جماعة تلمسان بقيادة بن بلة والفئات الأخرى، أرسل الرئيس عبد الناصر للشيخ كلا من عزت سليمان وفتحي الديب، وهما مسؤولا جهاز المخابرات، يطلب منه الوقوف إلى جانب بن بلة وجماعته، وعرض عليه أن يضع تحت تصرفه طائرة خاصة تقله إلى الجزائر. لكن الشيخ رفض ذلك وردد قائلا: " كلهم أبنائي" ونشر نص التصريح في الصفحة الأولى من جريدة الجمهورية المصرية، وهو ما يفسر غضب بن بلة على الشيخ .

إن الشيخ الإبراهيمي ليس فقط شخصية وطنية مؤثرة بل هو شخصية عربية وإسلامية، وهو ما يظهر من خلال اهتمامه بقضايا الأمة الإسلامية و العربية ونشاطه المكثف في في زياراته و علاقاته وكتاباته التي يدعو فيها إلى ضرورة خلق روابط عميقة بين الجزائر وعمقها العربي والإسلامي ،كما اهتم كثيرا بضرورة ربط و توحيد دول المغرب العربي والإسلامي لما لها من عظيم الأثر في تقوية وحدته .

عندما عاد الشيخ إلى الجزائر عقب الاستقلال، عاش في عزلة حتى وفاته يوم 20 ماي 1965.